المقتطف ٩٢

الجزء السادس من السنة السادسة * ١ ت ١٨٨١

فلسفة الجمال

الجمال وما ادراك ما تعريف الجمال . صفةٌ تنبسط لها النفس حتى تفيض حبًّا وانفعالاً وتنفث في عقول الالبّاء سحرًا حلالاً ومعنًى تجلّى لبصيرة اقلّ الناس خبرًا فكان لديهم معروفًا وسطت اشعّتهُ على قريحة اعظمهم علمًا فلم يستطيعوا له تعريفًا ألاَ وهو السرُّ الذي فتن الحكماء عن معرفة كنههِ فلم يصل اليهِ من بحثهم رائد ولا بلغوا مكانهُ من الفلسفة الاَّ من عهدٍ قريب. على انهُ مهما كثر الاختلاف في تعريف ماهيتهِ فلا خلاف في انهُ لفظٌ تشترك في معناهُ اشياء كثيرة متباينة الحقائق والطبائع كقولنا رجل جميل وامرأة جميلة وظبي جميل وورد جميل وحجر جميل وكوكب جميل ومنظر جميل وصوت جميل وصبر جميل واستعارة جميلة ومعنًى جميل الى غير ذلك ممَّا يجمعهُ الجمال على تباين اوصافهِ واختلاف طبعهِ. وهذا الذي حيَّر الفلاسفة في تعريف الجمال فاذا عرَّفوهُ تعريفًا يصدق على جمال الرجل والمرأة تمامًا مثلاً قريبًا لم يصدق على جمال الظبي او الورد او المعنى او غير ذلك حال كون جمال هذه الموصوفات كلها لا بدَّ ان يكون واحدًا بدليل ان النفس تنفعل بجمال كلٍّ منها انفعالاً واحدًا في الكيفية ولو تباوت في الكمية . ولما كان الجمال صفةً عامَّة تشترك فيها الاشياء الجميلة وكانت معرفتهُ مقدورةً للبشر لا مستحيلة فلا مانع من انهم يتوصلون اليها في الايام القابلة ان لم يكونوا قد توصَّلوا في مذهب من المذاهب التي استنبطها العقل والتي نذكر زبدتها في ما يأتي

قد ذهبت الفلاسفة في الجمال مذاهب شتى ترجع في الجملة الى مذهبين عامَّين احدهما يشمل المذاهب التي تعتبر الجمال قائمًا في نفس المدرِك لا في الاشياء المدرَكة الخارجة عن المدرِك والآخر يشمل المذاهب التي تعتبر الجمال قائمًا في الاشياء الجميلة المدرَكة الخارجة عن المدرِك وبعبارة اخرى ان اهل القسم الاوَّل يقولون ان الجمال ليس في ما ننظرهُ ولا في ما نسمعهُ بل في نفوسنا ونحن ننسبهُ الى ما ننظرهُ

ونسمعهُ واهل القسم الثاني يقولون ان الجمال مستقلٌ عما متعلق على ما ننظرهُ ونسمعهُ

فذهبت طائفة من فلاسفة القسم الاوّل الى ان الجمال انما هو انفعال النفس انفعالاً لذيذاً يشعر بهِ كل احدٍ عند ما يبدو لهُ ما يهيج فيهِ ذلك الانفعال . ولبيان مذهبهم نقول ان الجمال عندهم كالطعوم والالوان فان الطعوم كالحلاوة والمرارة ليست ذواتٍ مستقرّة في المذوقات ولا الالوان اشياء مستقرّة في المرئيات بل ان الانسان متى ذاق ثمرةً مثلاً يتأثر عصب الذوق فيهِ من قوّةٍ في الثمرة فينتقل هذا التاثير الى الدماغ حيث تشعر النفس منهُ بطعم الحلاوة . فالحلاوة ليست القوة التي اثّرت في عصب الذوق وانما هي شعور النفس بتاثير تلك القوّة . ومتى حصل هذا الشعور عند النفس اثبتتهُ للثمرة فيقول الذائق ان هذه الثمرة حلوةٌ والصحيح ان لها قوّةً على احداث الشعور بالحلاوة ولا حلاوة فيها . ومثل الطعوم الالوان كما بيّناهُ في مقالة " النور ومواجهُ " في العدد الماضي من المقتطف . وكذلك الامر في الجمال فان النفس اذا شاهدت بالعين وجهاً جميلاً لم ترَ فيهِ شيئاً وجودياً بل تنفعل منهُ انفعالاً لذيذاً هو الجمال ثم تثبت هذا الانفعال لهُ كما تثبت الحلاوة للمذوق فالجمال ليس القوة التي تحدث ذلك الانفعال في النفس وانما هي انفعال النفس عينهُ ولذلك يكون من متعلّقات المدرِك لا المدرَك

وذهبت طائفة ثانية من فلاسفة هذا القسم ان الجمال ائتلاف الافكار والانفعالات في النفس والمعنى في ذلك ان النفس تنبسط من رؤية بعض الاشياء الخارجة عنها او سماعها لها فكلما عاودتها تلك الرؤية او ذلك السماع عاد اليها الانفعال اللذيذ الذي انفعلتهُ قبلاً . وكذلك اذا عرض لها رؤية اشياء او سماع اشياء أُخر بينها وبين الاشياء الأُولى علاقة مشابهة او مخالفة او ما شاكل فان هذه تنبه فيها تلك وتلك تنبه فيها انفعالاتها اللذيذة : مثالهُ اذا نظر الانسان الى جنة متدلية الاغصان متقابلة الاغصان فيها من كل فاكهة زوجان

والطيرُ تشدو اغانيها على القُضُبِ والصبح أعلامهُ مخمرّة العَذَبِ
والسحبُ قد نثرت في الارض لؤلؤها نضيدهُ الشمس في ثوبٍ من الذهبِ

فان ذلك النظر ينبه فيهِ صوراً وافكاراً أُخرى تفعل فيهِ فعلاً لذيذاً وهذه تنبه غيرها من نوعها حتى تتجلّى النفس من انفعال الجمال . فالجمال عندهم هو ائتلاف افكار المدرِك وانفعالاته لا شيءٌ متعلق بالمدرَك . وذهبت طائفة ثالثة من فلاسفة هذا القسم ان الجمال سمات الاوصاف التي تنبسط لها النفس والمعنى في ذلك ان الانسان اذا نظر الى خط متموّج متعرج رآهُ جميلاً لا لانّ فيهِ جمالاً بل لانهُ يدلُّ على الليونة واللطافة وهما من الصفات العقلية التي تنبسط لها النفس فتفيضها على ذلك الخط تجميلاً وتحسيناً . وجملة القول ان اهل هذه المذاهب ينفون الجمال عن الشيء الجميل ويثبتونهُ للعقل المدرك لذلك الشيء . ويلزم من مذاهبهم انهُ اذا لم يوجد المدرِك ينتفي الجمال من الوجود وانهُ اذا لم ينظر المرئيُّ الجميل

كاللؤلؤة في الماء مثلاً لم يكن له جمال . وانهُ لاختلاف تأثر النفوس قد يكون الشيء الواحد جميلاً في اعتبار شخصٍ وغير جميل في اعتبار غيره بل قد يكون جميلاً وغير جميلٍ في وقت واحد بالنسبة الى حال الذين ينظرون اليهِ . وبالاجمال فان الجمال مقيَّد لا مطلق في مذاهبهم

واما فلاسفة القسم الثاني فقالت طائفة منهم ان الجمال هو كون الشيء جديداً غريباً وذلك يوافق قول العامة كلُّ جديدٍ له بهجة . ويرد عليهِ ان ليس كل جديد جميلاً فان من يرى الجمل اول مرَّة لا يراهُ جميلاً مع انهُ يكون جديداً غريباً عندهُ . نعم ان كون الشيء الجميل جديداً يزيدنا منهُ انفعالاً ويزيدهُ عندنا جمالاً ولكن ذلك ليس الجمال عينهُ . وقالت طائفة اخرى ان جمال الاشياء هو نفعها والجميل هو النافع . ويوافق ذلك قول محب المال احسن به اصفرَّ رافت صفرتهُ لكن يَرد عليهِ ان لا تلازم بين النفع والجمال لجواز الانفكاك بينهما واجتماع احدهما مع ضدهِ فالحمار مثلاً انفع من الطاووس مع قبحهِ وتناهي الطاووس في الجمال . وقالت طائفة أُخرى ان الجمال هو وحدة المتعدِّد لان العقل يطلب في الاشياء اتحاد اجزائها واجتماعها في واحدٍ فاذا سمع نغمات متعدِّدة اشتغل في جمعها وضم بعضها الى بعض حتى يصوغ منها لحناً واحداً يفرغهُ في قالب الطبن والموافقة . وقوى الاحساس في النفس تطلب التعدُّد في الاشياء فاذا سمعت لحناً انبسطت بتعدُّد نغماتهِ وتفاوت اوقاتها واذا رأت صورة انبسطت بتعدُّد اللون والظل فيها . فاذا لم يكن تعدُّد كما اذا كان اللحن كلهُ على نغمٍ واحدٍ او كانت الصورة كلها بلون واحدٍ انقبضت النفس وعافت سماعهُ ومنظرها . ولذلك زعموا ان جمال الاشياء هو وحدتها في تعددها ويرد عليهِ ما ورد على الذي قبلهُ من عدم التلازم بين الجمال والشرطين المذكورين فان من الاشياء ما هو جميل مع عدم تعدُّدهِ كمنظر بعض الالوان في ذاتها ومنها ما هو جميل مع عدم وحدتهِ كمنظر الافق وما حولهُ عند غروب الشمس . وقالت طائفة أُخرى ان الجمال هو الترتيب والتناسب اما الترتيب فهو كون اجزاء الشيء المركب بحيث تصلح لاتمام الغرض المقصود منها ككون العين في موضعها فلو وُضعت في قفا الراس مثلاً مع بقاء سائر الاعضاء حيث هي لانتفى الترتيب اذ لا تصلح العين اذ ذاك للغاية المقصودة منها . واما التناسب فهو مناسبة اجزاء الشيء بعضها لبعض في الزمان والمكان على وجهٍ يصلح لقضاء الغاية المقصودة منها كمناسبة قوائم الفرس لسائر اعضائهِ فلو بُدِّلت قوائمهُ بقوائم الكلب مثلاً لانتفى التناسب لان قوائم الكلب لا تحمل بدن الفرس ولا تصلح لجريهِ . فقول هذه الطائفة يضاهي القول بالنفع ويرد عليهِ ان الترتيب والتناسب قد يكونان في القبيح ايضاً كما في قوائم الخنزير وبدنهِ

بقي علينا ان نذكر مذهب طائفة أُخرى يشابه مذاهب هذا القسم في جعلهِ الجمال قائماً في الاشياء الخارجة عن المدرِك ولكنهُ يخالفها في بقية الامور وهو المذهب الروحي . وبيانهُ بالاختصار اننا كنا

الفنا وجدنا في المحسوسات التي حولنا عنصرين ممتازين الواحد عن الآخر وهما الروح والمادّة او المعنى والصورة او غير المنظور والمنظور. فهذان العنصران يتحدان في الشيء الجميل على شكل ان المادي او الصوري او المنظور يشفّ للحواس عن الروحي او المعنوي او غير المنظور وبعبارة أخرى ان الصورة الظاهرة تشفّ عن المعنى المستتر وراءها. ولما كان هذا المستتر المشفوف عنه روحيًا فارواحنا نحنّ من وراء الحواس اليه لانه من نوعها فتعطف نحوهُ وتلذّ بالتمازج معه والاختلاط به. فالجمال في تعريف هؤلاء هو ما يبدو للحواس على اشكال الهيولى من العنصر الروحي السامي الذي هو روح الاشياء وحياتها. ليس ان للهيولى نفسها روحًا تستشفّها الحواس في ادراك الجمال كما هو تعليم افلاطون وغيره بل ان ما تشفّ الهيولى عنه هو معنى خالقها ظاهرًا عليها. فكأنه تعالى يكلم ارواحنا بجمال ما خلق كما كلم الانبياء بالوحي فاذا شاهدنا الجمال فاضت ارواحنا حمدًا وتسبيحًا. وما احسن ما قاله الشاعر الشهير الشيخ ناصيف اليازجي في مناسبة ذلك

خطّت يد الحسن في مصقول جبهته سطرًا ملخّصهُ سبحان من خلقا

قد ظفرنا بالمقالة الآتية لجناب الفاضل اللغوي الشيخ ابرهيم اليازجي الناها في محشد المدرسة البطريركية يوم احتفالها بتوزيع الجزاء فآثرنا اثباتها حرصًا على فائدتها وهي هذه برشيق مبناها وانيق معناها قال حفظهُ الله

اصل اللغات الساميّة

هو بحثٌ اقترح عليّ على ضيق الوقت وتشتت البال ونزارة المادّة وضعف العُدّة وعلى كونهِ من المباحث التي تباعدت فيها مسافة الخلاف وخفيت اعلام البيان وكثرت الدعاوي وتخلّف الدليل فمن دون الوصول الى غايتهِ تيهٌ سحيق ومن دون ابداء الرأي فيهِ ألسنٌ حداد وصدورٌ حرار ولكني سأتوخّى فيهِ ما اظنهُ الاشبه والامثل ولعلّي لا اعدم في جانب الحقّ نصيرًا وفي جانب الحلم صفحًا جميلاً

المراد باللغات السامية اللهجة التي كانت على ألسنة ابناء سام بن نوح عليهما السلام ومن اخذ اخذهم وهم سكان القسم الجنوبي من غرب آسية من حدود الارمن شمالاً الى البحر العربي جنوبًا ومن خليج العجم شرقًا الى البحر الاحمر غربًا. وكانت ألسنتهم تنقسم الى ثلاث لغات في الجملة وهي العربية في ناحية الجنوب والعبرانية في ناحية الغرب والآرمية في ناحيتي الشمال والشرق. وهناك لغاتٌ اخرى من نحو الفينيقية والفلسطية من اللغات الدائرة والسامرية من لغات المتأخرين والحبشية من لغات ابناء حام بافريقية نومئ الى بعضها من جانب الكلام اذ ليس لنا من الذرائع المبلّغة الى موضع البحث فيها ما يبسط به الرأي